نحو استراتيجية للدراسات الفلسفية في مصر والعالم العربي

لا يخفي على أحد من كبار المعنيين بالدرس الفلسفي في العالم العربي، وما حاق به من تردي وهشاشة بل وتخلف، ولا أبالغ عندما أزعم أن القلم العربي لم يخرج مشروعاً فلسفياً يمكن التعويل عليه في حل قضايا الواقع المعيش، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن كتابات كبار المتفلسفين العرب لا تعدو أن تكون مجرد خطابات نقدية، يغلب عليها الذاتية والأحكام الموجهة والرؤى المتأثرة بنهوج غربية لا أصالة ولا ابتكار فيها.

أقول مع الأسف، أن منابرنا الثقافية شاغرة من الفلاسفة الذين كان لهم الأثر الأكبر في نهضتنا العربية الإسلامية منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حتى منتصف القرن العشرين، كما أن معاهدنا وجامعاتنا والأقسام المعنية بدراسة الفلسفة عجزت هي الأخرى عن انتاج مصابيح لقيادة الرأي العام لفكر مستنير، بمنأي عن اللجاجة والسفسطة والتعصب والتبعية والسطحية والعنف ثم الإرهاب.

و إذا ما حاولنا التعرف على العلل المباشرة التي أدت إلى هذا الحال، فإننا سوف نردها إلى سببين رئيسيين: أولهما عدم وجود قنوات بحثية تجمع شتات الموضوعات التي ينبغي علينا إدراجها في خططنا الدراسية، سواء في المرحلة الأولية قبل الجامعية، أو في مرحلة الليسانس والدراسات العليا.

وقـد أدى غيبة تلـك القناة إلى إصابة الدرس الفلسـفي بكل الآفات التي تقعـده عن الانتقال من طور التحصيل الردئ، إلى طور الاسـتيعاب والفهم، ثم طور الإبداع. فإذا ما نظرنا إلى المقررات الدراسـية الفلسـفية في المشرق العـربي، ومـا يقابلهـا بمثيلاتهـا في المغرب العربي، لـن نجد بينها تـوازن، أو تآلف أو تنسـيق إلى درجـة تصل إلى التضاد والتنافر، وعـلى الرغم من تعدد مؤتمراتنـا العلمية، ل ا أعـرف من بينها ما عكف على دراسـة البنية المعرفية الفلسـفية العربية؛ ليخطط لها و يقيم أحوالها، ويحدد الغايات التي يجب أن تسـعى إليها، وليس أدل على ذلك من ظاهرة تكرار الأبحاث، والاقتباسـات غـير المشروعة، وجهل المشرفين قبل الباحثين بالموضوعات التي درسـت من عدمه.

وقـد لفت نظري إلى هذه الآفة رسـالة صديقنا الأسـتاذ الدكتور حسـن ماجد العبيدي أسـتاذ الفلسفة الإسـلامية العراقي، الذي أخبرني بأن إحدى الرسـائل التي ناقشتها حديثاً (الفكر السياسي عند ابن الأزرق الغرناطي) قد بحثت موضوعها في جامعة الكوفة بعنوان «الفلسفة السياسية والاجتماعية لابن الأزرق» عام 1995، الأمر الذي غاب عن المشرف والباحث والمناقشين أيضـاً، مما يسـتوجب الإسراع في وضع قاعدة بيانات للرسـائل العربية التي سـجلت في شـتى التخصصـات - بمـا في ذلـك الأعـمال المترجمـة والمحققة؛ والأنشـطة البحثية التي يحررها المعنيون بالفلسفة من المتخصصين وغيرهم - وذلك في برنامج إلكتروني يتيح للباحثين على اختلاف مسـتوياتهم التعرف عـلى تلك الرسـائل للاسـتفادة منها، والعـزوف عن المكـرر، والتعرف على الموضوعات التـي تحتاج إلى الفحص والدرس، وغير ذلـك من الأمور الفنية التي يجب أن تفعل مثل التنسـيق بين لجان الترقيات في شـتى أنحاء الجامعات

العربيـة، وتبـادل الخبرات والتقييم المشـترك للمجـلات المتخصصة، ووضع معايير نشر لها، وكذا مد جسـور التعـاون في المؤتمرات الأكاديمية من جهة، وقضايـا الثقافة والمجتمع والسياسـة بـل والأمور الحياتيـة في العالم العربي من جهة ثانية، واسـتئناف الحوار بين العالم العربي وسـائر الثقافات في شتى قضايا الفلسفة من جهة ثالثة، حتى يصبح الخطاب الفلسفي العربي له وجود حقيقي مؤثر في واقعنا المعيش.

ذلك الذي هو أحوج ما يكون إلى القيم التي تحملها الفلسـفة بين طياتها، ألا وهى الأمانـة والصدق والإخلاص في البحث عن الحقيقة، وحرية الرأي والبوح والاعتقاد، والتسامح مع الأغيار، والاحتكام إلى العقل عند الخلاف في الحوار والمناقشة.

أما السـبب الثاني الذي حال بين مفكرينا و إنتاج مشروعات إصلاحية، تمكـن المجتمـع من النهـوض والتقدم والرقـي، وتعمل في الوقت نفسـه على إنقاذ الأفراد من الأوهام، والشـكوك واليأس والحـيرة، وعذابات الاختيار، وجحيـم العنف، وكل صور الفسـاد والـشرور، والانحطـاط الذي أصاب أذواقهـم وأفعالهـم، وغير ذلك مما يجب على الفيلسـوف فعله هو غيبة العين الناقـدة الواعية المدركة للثوابت والمتغـيرات في الهوية والمجتمع، والعارفة بالمقاصـد والآليـات والمآلات التي تسـعى إلى تحقيق أكبر قدر من السـعادة للفرد والمجتمع أيضاً.

نعم، إن عالمنا العربي يفتقر إلى الفلاسفة المبدعين، الذين يجذبون المثقفين بمطالعة ما يسطرونه و يستوعبون ما يكتبونه، و يتأثرون بآرائهم وتصوراتهم وأذواقهم الراقية.

أجل، إن قادتنا السياسيين وصناع القرار يتجاهلون الفلسفة، إلى درجة أن بعضهم شرع في إلغائها و إغلاق الأقسام التي تدرس فيها. وذلك لأنه لم يشعر بفاعليتها، أو أثرها في الواقع المعيش. ولم ير من بين المدافعين عنها سوى التعالي والتشدق بشعارات ليس لها صدى، ولا نفع في مجتمع انحطت أخلاقياته وأذواقه، وفسدت فيه الضمائر، وأضحى خطابه لا يعبر إلا عن العنف والإرهاب.

ولا ريب في أن توجيه الأبحاث الفلسفية صوب ميدان التطبيق هو إحدى الحلول المثمرة؛ لاسترداد الفلسفة لمكانتها ووضعها في حياتنا الثقافية، فلم تعد في حاجة لحفظ الموروث من أقوال الحكماء، أو مناقشة قضاياهم، أو التعلق بمنازعهم واتجاهاتهم، بل يجب علينا تجاوز ذلك للنفوذ إلى المنهج، ذلك الذي يمكننا من استخلاص الحكمة العقلية الكامنة في البنية الفلسفية وتطويعها للتطبيق في شتى المجالات، بداية من ميدان التعليم والسياسة والأدب والفن وأخلاقيات البيئة والمهنة، ومروراً بتقويم الفكر الديني و إنقاذه من الشطط والتعصب والجنوح، وانتهاء بفلسفة العقل التي تعمل على تنمية القدرات الإبداعية ومهارات اتخاذ القرار.

وحسبي ألا يُفهم مما ذكرته أنني أدافع عن الخطاب الفلسفي المعاصر، الذي أوشك على الهرم قبل أن يولد، بل إنني أقدم خطة امتلك تفاصيلها وطرائق توقيعها وسبل السير عليها. لتجديد التليد، وتحريك المياه الراكدة، و إزالة آفات التقليد التي حالت بين منبر الفلسفة وأداء وظيفته الحقيقية، فهل من مجيب؟